الفصل السادس

العولمة ومستقبل التعليم العالى*

يستهدف هذا الجزء الوقوف على موضوع العولمة ومستقبل التعليم العالى. وهذه عملية ليست سهلة كما يتصور البعض، لأن العولمة ظاهرة معقدة، بحيث يصعب الدخول فى تفاصيلها وعملياتها، واستخلاص ما يؤثر منها فى التعليم العالى. والتحليل المقدم يتناول بإطناب الفروق بين المنافسة الاستاتيكية (الثابتة) والديناميكية (المتحركة)، لأن المنافسة فى كل أنواعها تحمل بين طياتها سلوكيات مختلفة. تقدم هذه الفروق وصفا لمجموعة من السياسات يمكن للجامعات استخدامها لمواجهة تحديات العولمة. وقد يتصور البعض أن الحوار الخاص بالعولمة والتعليم العالى حديث مجرد من أى مغزى، والعكس صحيح. إذ يستهدف الحوار تقديم تحليل مطنب لديناميكيات العولمة المؤثرة فى الجامعات، بصورة تساعد الجامعات فى اتخاذ إجراءات، والقيام بأفعال لمواجهة المناخ الدولى المتغير.

وجدير بالذكر أن التحليل رغم تركيزه على طبيعة المنافسة التقليدية، لكنه لايستهدف مرة أخرى خداع الجامعات أو تملقها Cajole للتصرف بالطريقة نفسها مثل المؤسسات التجارية، والعكس صحيح. والمنافسة الديناميكية ضرورية لفهم العولمة، وهذه المنافسة بمثابة العملية التى تربط العولمة بإنتاج المعرفة التى تعتبر إحدى الوظائف المهمة للجامعة. ولأن الجامعات مازالت هى المصدر الوحيد تقريبًا لإنتاج المعرفة، فإنها سوف تنزلق إلى عملية المنافسة الديناميكية. ورغم الافتراض القائل بأن الجامعات أُنشئت لقيام بدور مهم فى الاقتصاد العالمى، الذى تسعى المنافسة الديناميكية من خلاله لتوضيح elicit حلول المعرفة، يبقى التساؤل حول قدرة الجامعات المساهمة فى إنتاج المعرفة دون تخليها عن قيمها الأساسية.

وغاية القول أن العولمة هى الدافع للتغيير فى الجامعة، لأنها (أى العولمة) تغير

* تأليف ميشيل جبونز Michael Gibbons.

سلوكيات الأكاديميين فى العملية البحثية ذاتها. وهنا يظهر عنصران: أحدهما يتعلق بظهور مجموعة جديدة من الممارسات البحثية، والآخر يتعلق بنشر البحوث كنشاط تنافسى يُمارس خارج أسوار الجامعة.

الجامعات والبحث العلمى Universies and Research

يقتضى الوقوف على طبيعة العلاقة بين الجامعات والبحث العلمى أولا تقديم وصف مقتضب لمجال وقوة البنية التنظيمية للجامعات، وثانيا تصنيف مجموعة جديدة للممارسات البحثية التى تختلف عن الطريقة التى يتم من خلالها تنظيم وإجراء البحوث فى الجامعات فى الوقت الحاضر. ويلى ذلك وصف الفروق الأساسية بين مجموعتى الممارسات البحثية فى إطار ما يسمى «بأسلوب واحد Mode one» و«أسلوب اثنين Mode Two»، باعتبارها أحد أشكال إنتاج المعرفة. وفى جزء لاحق من هذا الفصل، سيتم تقديم تفسير لكيفية ظهور «أسلوب اثنين»، ولكيفية ارتباطه بالعولمة.

تنظيم البحوث فى الجامعات Organization

عادة ما تكون البنى البحثية فى الجامعات مدعومة بمجموعة من الممارسات البحثية، لضمان صحة النتائج. هذه الممارسات البحثية تضع قواعد اللعبة، بمعنى، أنها تضع المصطلحات والتعابير الجديدة فى دنيا المعرفة، وتحدد المشاركين فى انتاج البحوث، أى المعرفة الجديدة، وكيفية تنظيم الاعتماد. هذه الممارسات تدعم أساس Underpin البنية التنظيمية للعلم والمعرفة Scholarship. وهذه البنية التنظيمية تلعب دورا رئيسا فى إدارة وتنظيم الجامعات اليوم. وغاية القول أن البنية التنظيمية تتعلق بالتخصص والاختصاصى Specialist. ففى العلوم الاجتماعية والإنسانيات، ينظر إلى التخصصية Specialism على أنها طريق آمن لتقدم المعرفة، وأن صيغها التنظيمية imperatives تصاحب أو تلازم استخدامها فى كل مكان.

والبنية التنظيمية تنظم التدريس فى الجامعات، عن طريق توفير إطار عمل لتطوير المناهج الدراسية فى مرحلة البكالوريوس. هذه البنية هى الرابط الأساسى للتدريس والبحث معا. كما تدعم الافتراض القائل أن التدريس والبحث يرتبطان معًا فى

الجامعات برباط وثيق. والبحث لا يضيف جديداً للمخزون المعرفى للاختصاص فحسب، ولكن يحول هذا المخزون أيضا والمشروع البحثى إلى مشروع ديناميكى. والممارسات البحثية تلقى الضوء وتوضح articulate البنية التنظيمية، وتعدل، مع الوقت، ما يسمى بالأفكار والأساليب والطرق الأساسية التى يحتاج الطلاب إلى تعلمها.

وللبنية التنظيمية جانبان: جانب معرفى Cognitive، وجانب اجتماعى Social ففى جانبها المعرفى، توفر البنية التنظيمية الأطر التوجيهية guidelines للباحثين حول المشكلات المهمة، وكيفية تناولها، ومن يتناولها، ومعينات الحل. وفى جانبها الاجتماعى، تصف البنية التنظيمية القواعد لتدريب واعتماد الباحثين الجدد، والإجراءات الخاصة باختيار الأساتذة الجامعيين، ومعايير التقدم فى الحياة الأكاديمية. والبنية التنظيمية بجانبيها تساعد فى تحديد «العلم الجيد» و«العالم الجيد». والبنية التنظيمية بذلك وثيقة الصلة «بأسلوب واحد» Mode one لإنتاج المعرفة.

ولأن البنية التنظيمية مرتبطة بالجامعات، حينئذ تكون الجامعات المشرِّع الأساسى مع التقاليد الأكاديمية، وسوف تتم التفرقة بين «أسلوب واحد» و«أسلوب اثنين». والممارسات البحثية المرتبطة «بأسلوب اثنين» فى نمو مستمر، جنبا إلى جانب الممارسات التقليدية، ومن المحتمل أن يترتب عليها تغيير شكل الجامعات.

وخواص «أسلوب واحد» Mode one باتت معروفة لجميع الاختصاصيين. لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة «لأسلوب اثنين». وفيما يلى توضيح للفروق بين الأسلوبين؛ فمصطلح «أسلوب واحد» يشير إلى صيغة Form من صيغ إنتاج المعرفة - مجموعة من الأقطار والطرق والقيم والمعايير - تستهدف ضبط عملية انتشار بنية التخصص إلى مجالات بحثية كثيرة، وضمان توافق هذه البنية مع الممارسة العلمية الصحيحة. ويستهدف «أسلوب واحد» Mode one إيجاز المعايير المعرفية والاجتماعية الواجب اتباعها فى إنتاج وتشريع ونشر المعرفة. والبحث الذى يطبق هذه القواعد يكون بحثا علميا، فى حين أن البحث الذى ينتهك Violate هذه القواعد لا يكون علميا بالمرة. ولهذه الأسباب، وبينما يتم الحديث فى «أسلوب واحد» عن العلم والعلماء، من الضرورى استخدام المصطلحات العامة للمعرفة (أو

البحث) والممارسين (أو الباحثين) عند وصف «أسلوب اثنين»Mode Two. وهناك قصد وراء ذلك، لا لشيء إلا لإلقاء الضوء على highlight الفروق بين الأسلوبين. ويجب ألا يُفهم من ذلك أن مستخدمى «أسلوب اثنين» لا يسلكون حسب معايير الطريقة العلمية. والفروق تزداد وضوحا فى مجال البحوث، وبالتالى يمكن وضعها فى إطار عدد من الخواص، التى تؤكد ظهور أسلوب جديد لإنتاج المعرفة.

هذه الخصائص تفيد فى تحديد الفروق بين «أسلوب واحد» و«أسلوب اثنين» Mode Two على النحو التالى:

* فى «أسلوب واحد»، تحدد المشكلات وتحل فى سياق تحكمه المصالح الأكاديمية لمجتمع معيّن، أما فى «أسلوب اثنين»، تُنتج المعرفة فى سياق التطبيق.
* «أسلوب واحد» نظامى disciplinary، أما «أسلوب اثنين» نظامى تداخلى transdisciplinary.
* أسلوب واحد يتسم بتجانس المهارات، أما «أسلوب اثنين» فيتسم بعدم تجانس المهارات.
* وفى الإطار التنظيمى، «أسلوب واحد» هيرارقى (هرمى)، وفى الحياة الأكاديمية، يحتفظ بصيغته. لكن فى «أسلوب اثنين» البيروقراطية التسلطية هى السمة الغالبة.
* «أسلوب اثنين» يمكن تعليله، وتأملى، مقارنة بأسلوب واحد.
* يستخدم «أسلوبا واحد واثنين» نوعًا مختلفًا لضبط الجودة. والمراجعة الجماعية شيء مؤكد. لكن «أسلوب اثنين» يشتمل على مجموعة غير متجانسة ووقتية من الممارسين مقارنة «بأسلوب واحد».

إنتاج المعرفة الاجتماعية

العنصر الثانى الذى يسهم فى تطور الممارسات البحثية الجديدة يتعلق بانتشار البحوث كنشاط يمارس خارج أسوار الجامعة. والعقود الخمسة الأخيرة من القرن العشرين المنصرم شهدت ظهور نظام اجتماعى لإنتاج المعرفة.. هذا النظام يتضمن

مـــخـــزونا reservoir من المهارات والخبرات التى يمكن اســتخـدامها فـى عديد من الإشكاليات البحثية، ويتطلب حفظ هذا المخـزون من الجامعات القيام بدور فى توفير باحثين مدربين.

وأول شىء يلاحظ على ظهور «أسلوب اثنين» Mode Two أن إنتاج المعرفة صار معـقدا أكثر مما كـان. والتغيـر الرئيس أن إنتاج المعرفـة لم يعُد نشاطا ذاتيـا. ولم يُعد إنتاج المعـرفة من صنع الجامعـات، ولا تكنولوجيا الصناعـة. كما أن إنتاج المعـرفة لم يعد حكرا على مؤسسة بعينها؛ بل إنتاج المعرفة انتقل من الأكاديمية (المجتمع العلمى) academy إلى مؤســسـات عديدة، بنظرياتهـا ونماذجها وطرائقـها وأساليبـها. لذلك، صار إنتاج المعرفـة عملية اجتماعية. وقـاعدة هذا الإنتاج تكمن فى زيادة عدد المواقع التى تشكل المصادر الأسـاسية لتجـميع وإعادة تجميع المـعرفة. والنتيجـة هذا التراكم المعـرفى لتاريخ البـشرية. هذا الإنتـاج التراكـمى للمـعرفة يـفرق حـدود الجامـعات ونظمها.

وإنتاج المعرفة الاجتماعية يتصف بخمس خواص، هى:

* تعدد الأمـاكن التى تجرى فـيها البـحوث لجـيدة. والدليل على ذلك تنوع وكـثرة المنشورات العلمية.

* اتصال المواقع بعضها ببعض يؤدى إلى توسعـة الأساس للتفاعل الفعال. وبالتالى تشتق الإضافات لمخزون المعرفة من الرصيد المعرفى للعديد من المؤسسات.

* تكمن ديناميكـيات إنتاج المعرفـة الاجتمـاعية فى تدفـقات المعرفـة، وفى النماذج المتغيرة للترابط Connectivity بين هذه التدفقات. هذه الترابطات تبدو عشوائية، لكنها تتوافق مع سـياق الإشكالية، وليس حسب البنيات التنظيـمية، أو إملاءات السياسة العلمية القومية.

* تـداخـل الـروابـط interconnections فى تزايد، ولا تعـوقه البـنيات المؤسـسيـة القائمة، لأن هذه الروابط مقصود بها أن تكـون وظيفية، وتظل موجودة طالما أنها مفـيدة. والمد والجزر الخاص بهـذه الروابط يتبع طرائق الاهتـمام بالمشكلة، وهذه الطرائق لم تعد تحددها البنية التنظيمية للعلوم.

* إنتاج المعرفة يُظهر نمو عدم التجانس heterogeneous، بالإضافة إلى ظهور مواقع جديدة لإنتاج المعرفة. كما أن نظم إنتاج المعرفة الاجتماعية توضح بعض الخواص المرتبطة بالأنظمة الذاتية، التى تتزايد فيها كثافة الاتصال بصورة سريعة.

وغاية القول أن طبيعة إنتاج المعرفة تُشكل تغيرا أساسيا فى إعداد مواقع الخبرة، وفى درجة ترابطها. وبات واضحا أن البحوث التى تعتمد على المصادر الخاصة بنظام إنتاج المعرفة الاجتماعية، تستخدم معايير مختلفة لتحديد الامتياز أو التفوق البحثى. وإذا كان الباحثون فى الجامعة يعملون فى إطار نظام توزيع المعرفة، حينئذ فإنهم سوف يستوردون أنواع الامتياز المختلفة إلى الجامعة، ومن ثم يبدأون تعديل ما يؤدى إلى وجود العلم والمعرفة Scholarship.

العولمة والمنافسة والإبداع

العولمة يمكن وصفها بأنها تقليد وتكييف وانتشار الإبداعات التكنولوجية، مع انتشار عملية التصنيع من دولة لأخرى. وقد يهدم ابداع معيّن Undermine الأساس الذى تقوم عليه شركة ما، وفى الوقت نفسه ينبع هذا التهديد للشركة من عدد من الأماكن المختلفة فى العالم، الأمر الذى يثير السلوك التنافسى بين الشركات. والمنافسة فوق ذلك تُطلق عملية الاكتشاف، وزيادة السلوك التنافسى تظهر فى حال تكثيف البحث عن الإبداعات، ومن بين طرائق البحث مشاركة الشركات فى أنشطة البحث (R) والتطوير D. ونظرا لفهم البحث والتطويرعلى أنهما يستهدفان إنتاج المعرفة الجديدة، فى هذه الحال، وفى عملية الإبداع، تصبح المعرفة مصدرًا نادرًا. وقد يكون من المناسب الحديث عن الإبداع كعملية بحث عن أنواع مختلفة من «حلول المعرفة». والعولمة حينئذ تصف انتشار التصنيع من دولة لأخرى. لكن ما ينتشر بالفعل هو الإبداعات التى تعتمد بصورة متزايدة على مدخلات المعرفة المتخصصة، ووراء كل ذلك المنافسة بين الشركات.

وجدير بالذكر أن المنافسة بين الشركات تحدث على مستويين: المنافسة الاستاتيكية (الساكنة) Static، والمنافسة الديناميكية (النشطة) Dynamic. والمنافسة الاستاتيكية تدفع الشركة إلى البحث عما يحقق الفاعلية، من خلال السعى لتحسين طرائق تحديد

المصادر أو الموارد. وعند هذا المستوى، عملية الاكتشاف تشمل degree نشاطا بحثيا .R وتطويريا .D. وتسعى الشركات إلى تحسين العمليات الصناعية التى تستخدمها، وخواص الأداء لمنتجاتها. وتكون النتيجة تياراً Stream من الإبداعات المميزة داخل إطار مجموعة من التكنولوجيات المختارة. وعند مستوى المنافسة الاستاتيكية، تسعى الأسواق إلى الاختيار والمفاضلة بين المنتجات. ونظراً لاختلاف الشركات فى درجة الفاعلية، تختلف الشركات فى ما بينها فيما يسمى «بمتوسط الممارسة الجيدة».

وفى ظل المنافسة الديناميكية، تختلف الأمور. وتطلق المنافسة الديناميكية أيضا عملية الاكتشاف، لكن بشكل مختلف. بمعنى أنه عند البحث عن أشكال تصميم جديدة، وأشكال جديدة من الأفكار والتكنولوجيات التى تشكل الأساس لبقاء الشركة، فلابد أن تكون مجموعة التكنولوجيات وأشكال التصميم الموجودة فى الشركة ذات جاذبية للمستهلكين من مكان لآخر. وبمعنى آخر، المنافسة الديناميكية تطلق نوع السلوك البحثى الذى تضطلع به الشركة فى توقع منها بظهور حل معرفى من مكان ما، يكون الأساس التكنولوجى لها. لكن لأن نوع الحلول المعرفية ومكان وجودها مجهولة، تخاطر الشركات بالمشاركة فى أنشطة بحثية مشتركة، مثل تأسيس شركات اتصال مشتركة، وتدخل فى تحالفات، وشراكات متنوعة.

وفى إطار عملية البحث، تشكل هذه التعاونيات مواقع معقدة لحل المشكلة. ويتم اقتفاء الحلول بصورة تعاونية، من جانب المشاركين والمنافسين أحيانا. وفى ظل المنافسة الديناميكية، تسعى الأسواق ليس للمفاضلة بين المنتجات، لكن بين المجموعات البحثية. ونظراً لاختلاف المجموعات فى درجة ومدى الإبداعية لديها، يعتمد أداء كل مجموعة بحثية على تكوينها. وهذه عملية غاية فى الأهمية للشركات أن تحدد نوعية وعدد الشراكات البحثية.

والعولمة وفق ذلك تدور حول تقليد وتكييف الحلول المعرفية، لانتشارها من شركة لأخرى، ومن دولة لأخرى. وجدير بالذكر أن العولمة لكونها تثير المنافسة الديناميكية، تؤدى إلى تكاثر proliferation المواقع التعاونية لحل المشكلة، لاجتذابها شركات عديدة للدخول فى دائرة orbit المنافسة. والدليل على ذلك واضح لا لُبس فيه Unequivocal؛ فأعداد المضاربات Ventures فى تزايد بين قطاعات كثيرة.

والموارد البشرية التى تتطلبها المضاربات البحثية التعاونية يتم توفيرها من موظفى الشركات. لكنها فى الوقت نفسه تستفيد من الخبرات الموجودة فى نظام إنتاج المعرفة الاجتماعية التى تكتسب بُعدا عالميا بسرعة.

والمواقع المختلفة للأداء البحثى التعاونى تكون جذابة attractors للمجتمع الأكاديمى. فمن ناحية، لأنها تشتمل على البحث فى الحافة الأمامية (مقدمة) للمجال التنظيمى، ومن ناحية أخرى، لأن فرصة العمل فى مجموعات حل المشكلة توفر طريقة جيدة لاستخدام وتطوير المهارات التخصصية. لذلك، إذا أريد وصف بعض الخواص الأساسية البحثية من أجل التوصل إلى أشكال تصميم جيدة، فإن أول شىء يجب معرفته أن البحث يجرى فى سياق التطبيق. وجدير بالإشارة أيضا إلى أن المضاربات تستخدم بنيًا تنظيمية عارضة trasient. علاوة على ذلك، يتطلب الأداء الفاعل من البحث الجماعى اتفاق الأشكال الخاصة بضبط الجودة. وفى هذا الحال يكون للبحث الجماعى كثير من خواص «أسلوب اثنين» المذكور فى الجزء الخاص «بالجامعات والبحث».

وغاية القول أن انتشار العولمة صاحبة تكاثُر الترتيبات البحثية الجماعية. وهذه المضاربات هى بمثابة مواقع تتطور فيها الممارسات البحثية الجديدة، وتؤدى هذه العملية إلى تزايد أعضاء المجتمع الأكاديمى. وأعداد الأكاديميين المشاركين فى البحوث المرتبطة بالصناعة كبيرة لدرجة يمكن للخبرة، فى هذه الحال، تعزيز الطرائق البحثية فى الجامعات. وفى إطار الوصف الخاص بأسلوب واحد Mode one وأسلوب اثنين Mode Two، تسهم العولمة فى إحداث وخلق التوتر بين بحوث الأسلوبين فى الجامعات.

العولمة والجامعات

يظهر التوتر بين العولمة والجامعات فى أبعاد كثيرة:

* بين الأكاديميين الذين يبحثون عن الاعتراف أو التقدير الجماعى لمشاركتهم فى أنشطة بحثية متنوعة.

* بين الأكاديميين والجامعة بحثا عن بنية أكثر تمايزاً تعترف بالأنشطة البحثية المختلفة.

* بين الجامعات والصناعة للحصول على الملكية الفكرية التى هى نتيجة الإنتاج المشترك للمعرفة، بواسطة خبراء من مختلف المجالات المعرفية.

والعولمة، من خلال التوترات التى تحدثها للحياة الأكاديمية، تمس طبيعة الجامعة، خاصة فى العملية البحثية. وجدير بالذكر أن تحول الباحثين الأكاديميين إلى الأبحاث التعاونية مع قطاع الصناعة لم يكن نتيجة السياسة الحكومية أو الاستراتيجية المؤسسية. لكن قرارات الأكاديميين بالاشتراك فى أنشطة بحثية تعاونية هى مسألة اختيار فردية، بناءً على رغبة الأكاديميين أنفسهم.

وإذا أرادت الجامعات التوافق مع هذه التغيرات فى سلوك الباحثين، فإن عليها تعديل سياساتها فى الاختيار، وظروف العمل داخلها، وبنيات الحوافز والمكافآت والتمايز. لكن نتائج هذه التحولات لها مضامين مزدوجة للجامعات كمؤسسات بحثية فى المقام الأول. والجامعات باشتراكها فى عملية الإبداع تكون وثيقة الصلة بقطاع الصناعة. والجامعات مطالبة فى هذه الحال بتغيير أساس علاقتها بالمجتمع الأكبر، فهل تستطيع الجامعات بالفعل الدخول فى هذه العلاقة الجديدة والوثيقة مع قطاع الصناعة، وفى الوقت نفسه تحافظ على كيانها كمؤسسات مستقلة ذاتيا، تكرس جهودها للصالح العام؟

والإجابة لابد أن تكون بالإيجاب، لكنها لا تتحقق دون إبداع. واتجاه التغيير يجب ألا يجعل الجامعة فى صورة تشوِّه تكامل الممارسات البحثية الخاصة بأسلوب اثنين Mode Two، ويعيد تأكيد القيمة الفردية الممارسات البحثية القائمة على النظام والمرتبطة بأسلوب واحد Mode one. والجامعات ليست فى حاجة للتخلى عن أسلوب واحد. لكن كل ما فى الأمر أن الجامعات فى حاجة لاحتضان أو اعتناق أسلوب اثنين Mode Two بصورة أكثر شمولية. وبمعنى آخر، الجامعات فى حاجة للمشاركة فى البحوث الجماعية والتعاونية، بعيداً عن السياق الاقتصادى والتجارى للبحث، بحثا عن نماذج وصيغ تصميم جديدة. ويجب ألا يكون موقفها سلبيا من

أسلوب اثنين. بل العكس يجب أن تضطلع بالدور الرائد فى تيسير وإدارة انتاج بحوث أسلوب اثنين Mode Two. الجامعات فى حاجة لتطوير الإجراءات والصيغ التنظيمية وبنى Structures الحوافز والمكافآت، التى تنتج نوعًا من العلم و(العلماء) ذات حساسية للسياق، ويتناول البحوث الخاصة بحلول المعرفة بعيدا عن حوار الخبراء، والتى تتناول المشاركة الاجتماعية فى العملية البحثية. والجامعات كمؤسسات لابد أن تنتقل من إنتاج المعرفة المجردة إلى المعرفة الاجتماعية القومية ro-bust. ويمكن أن تنتج الممارسات البحثية المرتبطة بأسلوب اثنين المعرفة الاجتماعية القوية. وهذا النوع من المعرفة هو الذى يطلبه المجتمع من مؤسساته العلمية خاصة فى الدول المتقدمة.